مصر

محمد حسنين هيكل : نحن كنا سبب الضياع والخيبة

ماذا يعني تصاعد المعارضة داخل مؤسسات النظام الحاكم؟!

لماذا فتحت ملفات فضائح وجرائم الكومبرادور المصري الآن؟!

الظاهرة اللافتة للنظر على الساحة المصرية في الاسابيع الاخيرة هي تصاعد المعارضة داخل مؤسسات النظام الحاكم مما احدث شروخا هامة وذات دلالة في التماسك والانسجام الظاهري الذي حرص النظام الساداتي على الظهور به واستطاع ان يحقق قدرا كبيرا منه في وجه الازمات العاصفة التي واجهته طوال العام ونصف الماضيين ... هذا التماسك الظاهري في واجهة السلطة المصرية والذي كان يخفي باتقان مرة وبجلافة مرات التناقضات العميقة والاخذة في التجذر بين ما يمثله النظام من مصالح وبين ما تطرحه احتياجات بقية الطبقات الاجتماعية من سياسات وتوجهات مغايرة ...

لقد بدأ هذا التماسك يتعرض وبشكل علني ومفضوح للتحلل والفساد بفعل عوامل كثيرة لم يعد النظام بقادر على استيعابها والمضي بها ، رغم اعلان السادات كعادته بأنه ماض في طريقه ولن يلوي على شيء مما جعل هذا الاعلان ـ الذي قد يبدو حمقا ـ وكأنه اعلان عن رغبة في الانتحار !.. او نوع من المكابرة لحفظ ماء الوجه امام « الاشقاء » السعوديين و « ابناء العم » الصهاينة والاصدقاء الاميركيين ! لكن المسألة اعمق مما تبدو بكثير ، وتكمن اساسا في الاسباب التي جعلت من الرجعية العربية والعدو الصهيوني ـ الاميركي حليفا ابديا للبرجوازية الحاكمة في مصر !.

لقد حقق « السادات » ويا للغرابة الحلم القديم لاحد رموز البرجوازية المصرية في الزواج الكاثوليكي بين مصر والاستعمار البريطاني .. حقق حلم امين عثمان « باشا » الذي كان « السادات » احد المتهمين باغتياله بسبب هذه الرغبة التي لم يمهله التطور الاجتماعي لتحقيقها .. فقد قتل « امين عثمان » على يد مجموعة من الشباب الوطني كان بينهم السادات في الاربعينات .. لمجرد الاعلان عن الرغبة في الخيانة! .. لقد حقق السادات الخيانة كاملة مع العدو الصهيوني والامبريالية الام دون ان يتذكر درس التاريخ او يذكره به احد ؟!

المسألة اذن ليست رغبة في الانتحار ولا هي عناد ومكابرة ، لكنها قوة الدفع الطبقي للشريحة الضيقة من البرجوازية الحاكمة .

والمسألة ايضا بالنسبة للمعارضين الجدد داخل مؤسسات السلطة ليست رجوعا الى الحق ، او تيقظا فجائيا للحس القومي والوطني ، ولكنها اكتمال لنمو مصالح خاصة ومتعارضة مع مصالح الشرائح العليا في السلطة . فكل هؤلاء المعارضين كانوا هنا عندما اتهم السادات ونظامه الشعب المصري بأكمله باللصوصية .. وكلهم كانوا في كامل قواهم العقلية عندما قطع النظام كلها يربطه بالمعسكر الاشتراكي وحركة التحرر العربي والعالمي والانظمة الوطنية .. والارتماء بكامل الفجاجة امام الادارة الامريكية والسلطة الصهيونية ثم على مسمع ومرأى ومباركة من كثير من المعارضين الجدد !

ما الذي حدث اذن لبعض اعضاء مجلس الامن القومي (اعلى سلطة استشارية للنظام الحاكم) فجعلهم يتذكرون ان المبادرة الساداتية فاشلة وانها السبب في شق وحدة الصف العربي . وان مصر لا تستطيع ان تعيش في عزلتها العربية طويلا .. وان العلاقة مع الاتحاد السوفياتي لازمة لاحداث توازن يوصل لحل سلمي مشرف !

● تقول التقارير ان اجتماع مجلس الامن القومي الاخير (٢٥ اذار مارس) قد ظهرت فيه معارضة « للمبادرة » وان الاعضاء ناقشوها من كل جوانبها ، وخاصة جانب انعكاسها على العلاقات العربية المصرية ، وان بعض الاعضاء نصح السادات باعلان فشل المبادرة بسبب تصلب بيغن والتوجه الى العرب لبدء مرحلة تعاون وتضامن جديدة (هذه هي حدود وآفاق المعارضة وهي حدود وآفاق فرضها الوضع العربي بعد الغزو الصهيوني لجنوب لبنان وانعكاسات هذا الغزو عربيا وعالميا) .

وفي مجلس الشعب ايضا !

واذا كانت اخبار المعارضة السياسية في مجلس الامن القومي قد تسربت سرا عن طريق الصلات التي تربط بين بعض المسؤولين العرب وبعض اعضاء المجلس ، فان المعارضة داخل مجلس الشعب قد تداولتها وكالات الانباء والصحف المحلية والقومية علنا ..

والمعارضة البرلمانية لسياسة السادات ظلت محصورة في معظم الاحوال داخل ممثلي حزب « التجمع الوطني الوحدوي » الذين كانوا اربعة فقلصتهم زيارة السادات للقدس المحتلة الى ثلاث ، وفي بعض الاحيان كان ينضم اليهم عدد من المستقلين في الوقت الذي اندمجت فيه المعارضة الرسمية والحزب الحاكم معا لقمع هذه الاصوات القليلة المعارضة ! لقد اتخذ السادات كل قراراته السياسية على ايقاع تصفيق اعضاء الاغلبية البرلمانية واحيانا على الخطوات الراقصة لبعضهم (بلغ الحماس ببعض اعضاء الحزب الحاكم حد الرقص طربا في قاعة البرلمان) او على التجليات الدينية الصادحة بالتكبير والتهليل للبعض الآخر ..

عبد المنعم الصاوي وزير الاعلام : معاهدة المقاولين العرب انجبت شركات سينمائية وتلفزيونية وصحفية !

ثم اذا بالبرلمان يبدو وكأنه غير البرلمان ... رغم انه لم تمض غير شهور على مهرجانات التأييد .

● الدكتورة ليلى تكلا العضوة المعينة من قبل السادات والشخصية المقربة جدا لسيدة البيت الحاكم في مصر ، تقف في لجنة الشؤون الخارجية (وهي رئيسة اللجنة ، لتطالب بقطع المفاوضات المباشرة مع اسرائيل قطعا نهائيا وشاملا وان تقنع مصر بأسلوب التفاوض غير المباشر) . كذلك طالبت رئيسة اللجنة بتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفياتي « لان مصر لا تستطيع الاستغناء عنه مهما كانت الظروف وانه بدوره لا يستطيع الاستغناء عن مصر » وبالمناسبة الدكتورة ليلى عضو في حزب الوسط الحاكم !

وقد صعد النائب المستقل الدكتور محمود القاضي (يستعد لتأليف حز بجديد باسم حزب الجبهة الوطنية مع عناصر من البرجوازية القديمة في الحزب الوطني السابق عام ١٩٥٢) المعارضة لان « المفاوضات المباشرة لن تؤدي الا الى تعميق الخلافات مع العالم العربي والى اغتراب متزايد عن العالم الاشتراكي الذي يمثل ثلث العالم الذي لا نستطيع الاستغناء عنه سياسيا ولا اقتصاديا ! » كما طالب بتحسين العلاقة مع الدول العربية الرافضة لمبادرة السادات .

وقد اقترنت هذه المطالبة البرلمانية التي اشترك فيها ممثلو جميع الاحزاب المصرية بالهجوم الحاد على قبول مصر بقرار واشنطن تزويدها بطائرات (ف ـ ٥) كطائرات متخلفة . ولعل في عرض ما قاله بطرس غالي وما قاله محمود القاضي ما يكشف عن مواقع كل منهما . بطرس غالي وزير الدولة للشؤون الخارجية هو احد مهندسي سياسة الشراكة الاقتصادية المباشرة مع اسرائيل ، وهو حفيد سميه بطرس غالي « باشا » احد رموز الخيانة البرجوازية مع الاستعمار البريطاني والذي قتل على يد احد شباب الحركة الوطنية في مستهل القرن لهذا السبب . يرى الوزير الذي اخذ جانب السادات في نقاشات مجلس الامن القومي ومجلس الشعب ان المفاوضات حول الصراعات الدولية صعبة وتستغرق مئات والاف الساعات بينما لم يتح للمفاوضات المباشرة مع اسرائيل غير ١٥ ساعة فقط « ربما بعد ٥٠ ساعة من المحادثات نستطيع ان نقرر ما اذا كنا قد نجحنا او فشلنا » .

اما الدكتور القاضي فقد عقب على رأي الوزير في وضوح بأنه « ولا حتى بعد ٤٠٠٠ ساعة بعد العام ٤٠٠٠ » .

ما الذي صعد المعارضة ؟

مع وضع العوامل العربية والدولية وتأثيراتها في الاعتبار فان الحاسم في تصاعد المعارضة داخل البرجوازية المصرية هو ما عبر عنه كبير مفكريها بلا جدال ـ محمد حسنين هيكل ـ في آخر حديث له ، والذي نشرته صحيفة « الاهالي » وهو اول كلام ينشر علنا لهيكل داخل مصر منذ اربعة اعوام ولهذا دلالته ايضا .. يقول هيكل بوضوحه الفكري المعروف والمشحون بالدلالة الآن « ما نعانيه هو مجموعة فرص ضائعة وآمال خائبة كنا نحن سبب الضياع والخيبة ... ولكن عناصر الثورة لا زالت حية وقائمة . في سنة ١٩٥٤ كان عدد العمال الصناعيين عندنا لا يتجاوز ١٢٠ الف عامل اما الان فهناك ثلاث ملايين عامل على الاقل، وفي عام ١٩٥٢ كان عندنا ٤٠ الف طالب وطالبة في الجامعة لكن لدينا الآن ٢٥٠ الف شاب وفتاة في جامعات وكليات منتشرة في ارجاء مصر (.....) وحتى الرأسمالية الوطنية (الاصطلاح الناصري للبرجوازية المنتجة) استيقظ وعيها وبدأ اصحاب المصالح والمصانع يدركون ان الانفتاح يجرفهم ويغرقهم .. هناك قوى تولد وتنمو كل يوم في مصر .. وهي لا بد وان تشق طريقها » ...

هل هناك اعتراف انضح واوضح من كلام «هيكل» ؟.. كنا نحن سبب الضياع والخيبة ... على من يعود ضمير « النحن » هنا غير البرجوازية الصغيرة والمتوسطة التي تجني ثمار ما غرسته من طوال عصرها الذهبي ، عصر تجددها في ايام نسبها المقتول عبد الناصر الذي لم تكتف بقتله بل تركت لحمه يؤكل ميتا !

لقد انتقلت هذه القطاعات من البرجوازية المصرية خلال الشهور الماضية من موقع الدفاع الى موقع الهجوم ، وها هي تفتح ملف الفئات الطفيلية التي تركت لها قيادها طويلا .. تنشر فضائحها وجرائمها في مجلس الشعب واجهزة النيابة والمحاسبة والرقابة .. بيع هضبة الاهرام ـ بيع ١٣ حيا من احياء القاهرة .. بيع شركات القطاع العام .. جرائم المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية .. جرائم وزيرا الاعلام والاقتصاد في تأجير العقل والوجدان المصري لاحتكارات السينما والتلفزيون والنشر الامريكية .. وكلها جرائم تواطأت البرجوازية المصرية على اخفائها طويلا ـ حتى تأكدت بأن من تركت له قيادها سيلتهمها هي اولا لان الطبقات الشعبية لم يعد عندها ما تفقده سوى القهر والذل والفقر الذي وصل الى حد ان تجوع خمس قرى مصرية في دلتا وادي النيل الخصب !

عند ذلك فقط ادركت البرجوازية المصرية كل جرائم ربيبتها وابنة بطنها (البرجوازية الكومبرادورية) .. الى اي مدى يمكن ان تسير هذه القطاعات من البرجوازية في هجومها ومعارضتها ؟! هذا هو السؤال الذي تطرحه الحركة الثورية المصرية على نفسها حتى لا تخدعها الاوهام التي خدعت الكثيرين من قبل .. والجواب الواضح القاطع هو ان هذه المعارضة لن تمضي ابعد من ازاحة الشرائح المفضوحة والواضحة الخيانة في مؤسسات الحكم ثم تلتفت الى ذلك النمر الجائع من خلفها .. تلتفت الى الطبقات الشعبية التي تنبهت للمظالم الواقعة عليها الان لتعيدها ثانية الى قفص الاستغلال تحت شعارات جديدة !

لكن هذا لا يعني بحال اننا ندير الظهر للتناقضات البرجوازية التي تعبر عن نفسها في الظواهر المتعددة لمعارضة السادات .. ان علينا ان ندفعها ونعمقها اكثر فأكثر دون ان نترك لها قيادتنا .. فنحن والضمير هنا يعود على الحركة الثورية اقدر منها حتى على تحقيق مصالحها .. ودور البطولة في مسرحية السلطة يجب ان ينتزع منها والى الابد .. يجب ان ندرك ان قدرها التاريخي الآن هو ان تقاد لا ان تقود !